

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأحقاف

وهي سورة مكية، وتبدأ بقول الله عز وجل:

﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾

﴿حَمْدٌ﴾ من الحروف العربية قصد بها القرآن الكريم لفت أنظار المشركين وجذب اهتمامهم ليستمعوا إليه فتصلهم الرسالة وتلزمهم الحجة.

﴿تَنْزِيلُ﴾ هذا الكتاب العظيم، وهو القرآن ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، ﴿الْعَزِيزِ﴾ الذي لا يغالبه أحد، ﴿الْحَكِيمِ﴾ أي: في تدبيره وأقواله وأفعاله وتشريعاته. فهلاً آمنوا به وعملوا بما فيه؟ !

ثم يسوق ربنا عز وجل ما يدل على عزته وحكمته، ما لو عرفه واعتبر به عاقل: لآمن بالله سبحانه وتعالى، حيث يقول:

﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾

أي: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ على هذا الإبداع ﴿إِلَّا﴾ خلقاً ﴿بِالْحَقِّ﴾ وبغاية عظمة وليس عبثاً، وأيضاً: لـ ﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو فناء الدنيا وبعث الخلائق، وبهذا: أصبح واضحاً أن هناك إلهاً لهذا الكون عزيزاً حكيمًا، عادلاً رحيمًا، وأن هناك كذلك بعثاً للعباد، ﴿و﴾ مع هذا الوضوح: نجد أن ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا﴾ به وخُوفوا منه، وهو العذاب بسبب كفرهم وطغيانهم ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا يؤمنون.

ومع هذا الإعراض يأمر ربنا تبارك وتعالى رسوله بمناقشتهم في أسباب إعراضهم، وإبطال مزاعمهم الفاسدة إذ يقول له جل جلاله:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنْتُونِ يَكْتِيبَ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾﴾
 ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المعرضين ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ يعني: أخبروني ﴿مَا﴾ هذه الأصنام التي ﴿تَدْعُونَ﴾ يعني: تعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؟ إنها: لا شيء!! وإلا ﴿أَرُونِي﴾ وأرشدوني ﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ إن كانوا آلهة؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ أي: مشاركة مع الله ﴿فِي﴾ خلق ﴿السَّمَوَاتِ﴾؟ إنه: لا هذا، ولا ذاك!! وعلى هذا كيف تعبدونهم، وهم ليسوا بآلهة!!! بل مَنْ الذي جعلهم لكم آلهة؟ ﴿أَتُنْتُونِ يَكْتِيبَ﴾ أنزله الله ﴿مَنْ قَبْلَ هَذَا﴾ القرآن، يشهد لكم بصحة عبادتكم لهم. ﴿أَوْ﴾ انتوني بأي ﴿أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ ولو كان أبسط شيء يدل على صحة عبادتكم لهم، وذلك: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنهم آلهة!!

وهكذا أبطل القرآن دعواهم، ثم حدثهم عن حجم آلهتهم هذه، فقال:

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾
 حقاً إنه: لا ﴿أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا﴾ ويعبد ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾!! وهي: هذه الأصنام.

ثم وصف الله معبوداتهم هذه بأربعة أوصاف، كلها تجلب الحسرة لهم يوم القيامة، وتدعوهم إلى مراجعة أنفسهم في الدنيا:

الوصف الأول: أنها ﴿مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ أي: لعابدها إن دعاها، ومهما دعاها، أو طلب منها ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ لأنها لا تملك نفعا ولا ضرا.
 الوصف الثاني: أنها تكون ﴿عَنِ دُعَائِهِمْ﴾ لها ﴿غَافِلُونَ﴾ أي: غافلة، لأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل.

الوصف الثالث: أنه ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ﴾ الذين كانوا يعبدونهم في يوم البعث ﴿كَانُوا﴾ أي: صاروا ﴿لَهُمْ أَعْدَاءً﴾.

الوصف الرابع: أنهم في يوم القيامة ﴿كَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ أي: يقولون: والله ما دعوناهم إلى عبادتنا.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ من هذا الذي يعبد آلهة هذه صفاتها، وهذه قدراتها؟ إنه بالطبع لا أضل منه!!

وبعد ان تبين ضلالهم في قضية التوحيد: يبين سبحانه - أيضًا - ضلالهم في موضوع النبوة، الذي كان سببًا في ضلالهم كله. فيقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَإِذَا نُنَادِي عَالِمُنَا يَنْتَدِي قَالَ أَلَدِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾

وكانوا ﴿إِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا﴾ من القرآن ﴿يَنْتَدِي﴾ واضحات لا غموض فيها، ولا إبهام !! ﴿قَالَ أَلَدِينَ كَفَرُوا﴾ كبراً وعناداً ﴿لِلْحَقِّ﴾ وهو القرآن ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ به محمد وتلاه عليهم ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ واضح أنه سحر.

ولم يكتفوا بأن وصفوا القرآن هكذا بأنه سحر. بل زادوا على ذلك كفراً وعناداً.

يقول الحق سبحانه:

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

يعني: بل ﴿يَقُولُونَ﴾ أيضًا إنه ﴿افْتَرَاهُ﴾ واختلقه من عند نفسه، وبهذا فليس القرآن من عند الله، وليس محمد بنبي كما يقول، ويأمره الله عز وجل بالرد عليهم، فيقول له:

أولاً: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ من نفسي: فقد كذبت على الله، ولعاقبني أشد العقاب.

وعندها ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي﴾ أنتم ولا غيركم ﴿مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ يمكنكم من الدفاع به عني، فكيف أفتريه؟

وعلى أية حال: ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ من الطعن في وحدانية الله، وإنكار الوحي، وعدم الاعتراف بنبوتي.

لذلك ﴿كُفِيَ بِهِ﴾ سبحانه ﴿شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يشهد لي بصدق البلاغ، ويشهد عليكم بالتكذيب والعناد، ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿الْغَفُورُ﴾ لمن تاب وآمن ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين. فآمنوا إن كنتم عقلاء، وأردتم غفرانه، ورحمته!!
ثم يقول له ثانيًا.. في معرض الرد عليهم:

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعَاةٍ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا يَكُمُّ إِنِ اتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿٩﴾
أي ﴿قُلْ﴾ لهم لم تنكروا نبوتي، فأنا:

أولاً: ﴿مَا كُنْتُ بِدْعَاةٍ الرُّسُلِ﴾ أي: لست بأول رسول من الله، فقبلي كان رسل كثيرون.

ثانيًا: ولا أعلم الغيب، ولا أدعي ذلك، ﴿وَعَلَىٰ هَذَا﴾ ﴿مَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا يَكُمُّ﴾ في الدنيا؟

ثالثًا: ما جئت بدعوتكم إلى الإيمان بالله الواحد من عند نفسي ﴿إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ من ربي عز وجل.

رابعًا: ﴿وَمَا أَنَا﴾ بالنسبة لكم ﴿إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أمري ظاهر، ودعوتي واضحة. فآمنوا إن كنتم عقلاء، وأردتم غفران الله، ورحمته!!

ثم يقول ربنا للنبي ﷺ ثالثًا.. في معرض الرد على هؤلاء المعرضين المعاندين:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَتِ فِئَامَنٌ وَأَسْتَكَبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٠﴾

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: أخبروني ﴿إِنْ كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ حقًا ﴿وَعَدَّ كُفْرْتُمْ بِهِ﴾ كما تفعلون الآن!! ﴿وَفِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ﴾ ﴿شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ الذين تسألونهم، وثقون في إجاباتهم ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ أي عليه ﴿فَقَامَتِ فِئَامَنٌ﴾ هو أنه من عند الله ﴿وَأَسْتَكَبَرْتُمْ﴾ أنتم، وبقيتم على كفركم، أخبروني: من أضل منكم؟ لا أحد. بل: من أظلم منكم؟ لا أحد. ولذلك: لا تستحقون الهداية؛ حيث ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

ومع هذا الإعراض عن القرآن!!

ومع هذا العناد من الكفار عن الإيمان!!

كان الناس يدخلون في دين الله، ويوحّدون ربهم، ويتّبعون محمداً ﷺ. ماذا كان موقف هؤلاء الكفار، من هذه الظاهرة؟ يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: قالوا في حقهم، تنقيصاً لهم ﴿لَوْ كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿خَيْرًا﴾ لآمنّا به، واتبعناه قبلهم، و ﴿مَّا سَبَقُونَا﴾ هم ﴿إِلَيْهِ﴾، ولكنه: ليس حقاً، ولا خيراً، ولهذا: لم نؤمن به، ولم نتبع محمداً.

والسبب في موقفهم هذا: أنهم لم يهتدوا إلى ما فيه:

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ ويعرفوا عظمته، ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ بالطبع ﴿هَذَا إِفْكٌ﴾ كذب ﴿قَدِيمٌ﴾ نقله بنفسه، واقتراه من الكتب القديمة السابقة.

ويرد الله عز وجل عليهم بقوله سبحانه:

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۖ وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّنَذِرِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾

أي: ﴿و﴾ القديم الذي كان ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ هو ﴿كِتَابُ مُوسَىٰ﴾ وهو التوراة، الذي كان ﴿إِمَامًا﴾ في دين الله وشرعه ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن به، والقرآن: ليس كذباً، ولا افتراءً من محمد، بل هو ﴿كِتَابٌ﴾ من عند الله.

ثم يصفه ربنا بهذه الصفات:

الأولى: أنه ﴿مُصَدِّقٌ﴾ لما سبقه من الكتب المنزلة من الله.

الثانية: أنه جاء ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي باللسان العربي؛ ليفهموا بلاغته وفصاحته، فيعرفوا أنه من عند الله، وليس من صنع البشر.

الثالثة: أنه جاء ﴿لِّنَذِرِ﴾ ويخوف ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من عذاب الله.

الرابعة: أنه جاء ﴿بُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ المؤمنين المطيعين.

هذا هو القرآن، حقاً إنه من عند الله، وليس إنكاً كما يقولون ﴿... كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

وبعد أن تقرر أدلة التوحيد، وأدلة النبوة !! وبعد أن تم الرد على شبهات المشركين !! وبعد أن ظهر أن القرآن الكريم: بشرى للمحسنين !! يكون حديث القرآن عن هؤلاء ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾، فيقول الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٣)
﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٤)

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ على التوحيد، وطاعة الله، والتوبة إليه من الذنوب والمعاصي، وأخلصوا العمل له سبحانه، هؤلاء: هم المحسنون، ولذلك: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من أي مكروه يلحق بهم في الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على فوات محبوب في الدنيا.

حقاً: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ مالكوها، والمقيمون فيها، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا خروج منها، ولا موت بها، وذلك ﴿جَزَاءً﴾ لهم ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ مما وفقهم الله إليه من العمل الصالح.

ولمّا ذكر الله تعالى جزاء الإحسان: أتبعه ببيان أعظم أنواعه، وهو الإحسان إلى الوالدين. فقال المولى عز وجل:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصْلَتُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١٥)

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ أن يحسن إليهما ﴿إِحْسَانًا﴾ عظيماً، ثم خص الأم: بمزيد هذا الإحسان، وذلك: لأنها قد ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾ أي: بمشقة ﴿وَوَضَعَتْهُ

كُرْهًا ﴿و﴾ كَانَ ﴿حَمْلُهُ﴾ هَذَا ﴿وَفِصْلُهُ﴾ بَعْدَ الرِّضَاعِ ﴿ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ كُلُّهَا تَعِبَ وَمَشَقَّةٌ ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ﴾ هَذَا الْإِنْسَانَ ﴿أَشَدَّهُ﴾ وَهُوَ: كَمَالُ قُوَّتِهِ، وَعَقْلُهُ، ﴿وَبَلَغَ﴾ مِنَ الْعُمُرِ ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾، طَلَبَ مِنْ رَبِّهِ وَ ﴿قَالَ﴾:

أَوَّلًا: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أَلْهَمْنِي ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ بِهَا، وَهِيَ: نِعْمَةُ الْإِسْلَامِ.

ثَانِيًا: ﴿و﴾ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ بِهَا ﴿عَلَيَّ وَلِدَيَّ﴾ وَهِيَ: نِعْمَةُ الْإِسْلَامِ.

ثَالثًا: ﴿و﴾ أَعِنِّي عَلَىٰ ﴿أَنْ أَعْمَلَ﴾ عَمَلًا ﴿صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ يَسْعِدُ بِهِ الْعِبَادَ، وَتَصْلِحُ بِهِ الْبِلَادَ.

رَابِعًا: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ أَي: اجْعَلْهَا مَوْضِعًا لِلصَّلَاحِ وَالِاسْتِقَامَةِ.

خَامِسًا: ﴿إِنِّي بُنْتُ إِلَيْكَ﴾ فَاقْبَلْ تَوْبَتِي، وَاغْفِرْ ذُنُوبِي.

سَادِسًا: ﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ الْمُنْقَادِينَ لَكَ، الْمُسْتَسْلِمِينَ لِقَضَائِكَ، الْعَامِلِينَ بِشَرِيعَتِكَ، فَتُبْتَنِي عَلَىٰ ذَلِكَ.

حَقًّا: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (١٦)

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الْمُحْسِنُونَ، الْمُوصُوفُونَ بِمَا ذَكَرَ: هُمْ ﴿الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ﴾ أَي: مِنْهُمْ ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ وَنَرْضَىٰ بِهِ، وَنُثِيبُهُمْ عَلَيْهِ، وَهُمْ الَّذِينَ ﴿نَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ وَنَغْفِرُ لَهُمْ، وَهُمْ الَّذِينَ نَجْعَلُهُمْ ﴿فِي﴾ زَمْرَةِ ﴿أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَهَا، ﴿و﴾ كَانَ هَذَا الْجَزَاءُ: ﴿وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ بِهِ فِي الدُّنْيَا، عَنْ طَرِيقِ الْكُتُبِ مِنَ اللَّهِ، عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ.

وَلَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ حَالَ: الْمُحْسِنِينَ، الدَّاعِينَ لِلدِّينِ !! ذَكَرَ عَقِيْبَهُ حَالَ: الْمُسِيئِينَ، الْعَاقِبِينَ لِلدِّينِ، فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا:

﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِيهِ أَفِي لَكُمْ أَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَكْبِرَانِ اللَّهُ وَبِكَ ءَامِنُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٧)

﴿و﴾ أما ﴿الَّذِي﴾ فجر، و ﴿قَالَ لَوْلَايَهِ أَفِ لَكُمْ﴾ متضرراً، ﴿أَتَعِدَانِيَّ أَنْ أَخْرَجَ﴾ من القبر، و أبعث!! خاصة ﴿وَقَدْ خَلَّتْ﴾ أي: مضت ﴿الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ ولم يبعث منهم أحد، ﴿وَهُمَا﴾ أي: والديه ﴿يَسْتَعِثَّانِ اللَّهَ﴾ أن يعيده إلى الصواب، وأن يرزقه الإيمان والعمل الصالح، ويقولان له: ﴿وَيْلَكَ﴾ هلكت بكفرك هذا، ﴿أَمِنْ﴾ بوحداية الله، والبعث، والحساب، والجزاء ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث ﴿حَقٌّ﴾ أي: صدق لا خُلف فيه.

﴿فَيَقُولُ﴾ مجيباً لهما: ﴿مَا هَذَا﴾ الكلام ﴿إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ فهو كذب، لا صدق فيه، ولا حدوث له.

حقاً، هذا ما يقول عنه المولى وعن أمثاله:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾

أي: ﴿أُولَئِكَ﴾ الفاجرون، المسيئون: هم ﴿الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ بالعذاب ﴿... لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

وذلك ﴿فِي أَمْرِ﴾ أي: ضمن أمم ﴿قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وكفرت بالله، وأنكرت البعث مثلهم ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ يوم القيامة!! هذا ﴿وَلِكُلِّ﴾ فريق منهم ﴿دَرَجَتٌ﴾ في العذاب ﴿مِمَّا عَمِلُوا﴾، ﴿وَلِيُوفيَهُمْ﴾ ربك ﴿أَعْمَلَهُمْ﴾ بما يناسبها جزاء لهم، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

ولمَّا بين المولى أنه يوصل حق كل أحد إليه: بين بعض أحوال العصاة، فقال تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ طِبْعَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَيَوْمَ﴾ القيامة ﴿يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾: فيفزعون، ويعذبون فيها: فيتألمون، ويندمون، ويتمنون!! فيقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طِبْنَكُمْ﴾ التي من الله بها عليكم، ﴿وَأَسْتَمَعْتُمْ بِهَا﴾ في الدنيا، دون أن تؤمنوا بصاحب هذه النعم، ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي: الهوان وهو الذل، وذلك: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ وتبغون ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، ﴿و﴾ كذلك ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ بالكفر والمعاصي.

ولمّا قدّم الله عز وجل لكفار مكة دلائل التوحيد والنبوة: ولم يؤمنوا وشغلوا بالشهوات والملذات!! بين الله لهم عاقبة ذلك بضرب المثل، وتوضيح المصير، بمن سبقهم من الأمم القريبة منهم، فقال للنبي ﷺ:

﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أُنْذِرَ قَوْمَهُ بِأَلْحَقَافٍ وَقَدْ خَلَّتِ الْنُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٢١)

﴿وَأَذْكُرْ﴾ لهم يا محمد هوذا ﷺ ﴿أَخَا عَادٍ﴾ الأقوياء الأشداء ﴿إِذْ أُنْذِرَ قَوْمَهُ﴾ الذين كانوا ﴿بِأَلْحَقَافٍ﴾ قريباً منكم بجنوب الجزيرة العربية، وخوفهم بعذاب الله، ودعاهم إلى الإيمان، ﴿و﴾ لم يكن وحده في ذلك، حيث ﴿قَدْ خَلَّتْ﴾ سبقت ﴿الْنُّذُرُ﴾ أمثاله لأقوامهم أمثالكم ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ من قبله ومن بعده!! وقال لهم، كما يقول لكم محمد: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إن لم تؤمنوا. فماذا قالوا له؟

﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتُفِكَكَ عَنْ آلِهَتِنَا فَأُنَبِّئُكَ بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ (٢٢)

﴿قَالُوا﴾ له: ﴿أَجِئْنَا﴾ بهذه الدعوة ﴿لِنَتُفِكَكَ﴾ أي: تصرفنا ﴿عَنْ﴾ عبادة ﴿آلِهَتِنَا﴾ التي نعبدُها!!! لن نؤمن لك، ولن نخاف تهديدك، ﴿فَأُنَبِّئُكَ بِمَا تَعِدُنَا﴾ به من العذاب ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ فيما تقول، ونحن على ثقة أنك غير صادق.

فكان جوابه لهم:

﴿قَالَ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبْلِغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾^(٢٣)
 أي: ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿إِنَّمَا أَعْلِمُ﴾ بوقت نزول ما أَعَدَّكُمْ و أَخَوْفَكُمْ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ
 ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾، ﴿و﴾ مَا دَوْرِي: إِلَّا أَنْ ﴿أُبْلِغُكُمْ﴾ فَقَطْ ﴿مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ إِلَيْكُمْ
 مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَالتَّخْوِيفِ بِهَذَا الْعَذَابِ، إِذَا بَقِيتُمْ عَلَى كُفْرِكُمْ وَعِنَادِكُمْ،
 ﴿وَلَكِنِّي﴾ مَعَ ذَلِكَ ﴿أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ وَظِيْفَةُ الرِّسْلِ، وَلَا تَفْهَمُونَ ضَرَرَ
 عِنَادِكُمْ، وَاسْتَعْجَالِكُمْ هَذَا الْعَذَابِ.

وَأَصْرُّوا عَلَى الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ، وَجَاءَ الْعَذَابُ، إِذْ أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الرِّيحَ، وَلَمْ يَعْرِفُوا أَنَّهَا
 الْعَذَابُ:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ
 بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا
 مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾^(٢٥)

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أي: الرِّيحَ يَحْمِلُ سَحَابًا ﴿عَارِضًا﴾ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ ﴿مُسْتَقْبِلَ
 أَوْدِيَّتِهِمْ﴾ يَسِيرُ فِي جِهَتِهَا !! فَرَحُوا وَ ﴿قَالُوا﴾ لِبَعْضِهِمُ الْبَعْضُ ﴿هَذَا عَارِضٌ﴾
 سَحَابٌ ﴿مُطَرُّنَا﴾ وَسَيَبُتْ زَرْعُنَا، وَيَكْثُرُ خَيْرُنَا، وَرَأَى هُودٌ ﴿مَا رَأَوْا فَرَدَ عَلَيْهِمْ
 وَقَالَ لَهُمْ: لَا، لَيْسَ هَذَا رِيحٌ يَحْمِلُ السَّحَابَ لِيُمْطَرَكُمْ، ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾
 مِنَ الْعَذَابِ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لَكُمْ.

رِيحٌ ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فِي طَرِيقِهَا ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾، وَقَدْ كَانَ !! وَدَمَرَتِ الرِّيحُ كُلَّ
 شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا، ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ هَلَكَى كُلُّهُمْ، رَجَالًا وَنِسَاءً وَأَطْفَالًا، وَأَمْوَالًا ﴿لَا يُرَى
 إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾، وَلَمْ يَنْجُ مِنْ هَذَا الْعَذَابِ: إِلَّا هُودٌ ﴿وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ﴾.

يَقُولُ تَعَالَى مَهْدَدًا كُفَارَ مَكَّةَ، وَكُفَارَ الدُّنْيَا كُلِّهَا: ﴿كَذَلِكَ﴾ الْجَزَاءُ الَّذِي وَقَعَ
 بِعَادِ قَوْمِ هُودٍ ﴿نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أَيْنَمَا كَانُوا، وَمَهْمَا كَانُوا.

وَفِي لَهْجَةِ التَّحْذِيرِ: يَوَاصِلُ رَبَّنَا الْكَلَامَ مَعَ الْكُفَّارِ قَائِلًا:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيْمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيْهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْعِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ﴾ في الأرض، وأعطيناهم من كنوزها وخيراتها الكثير، ﴿فِيْمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيْهِ﴾ يا أهل مكة، وأعطيناكم كما أعطيناهم؛ لطغيتم أكثر وأكثر، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ﴾ كذلك، كما جعلنا لكم ﴿سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْعِدَةً﴾ يستفيدون بها في معرفة آيات الله، ويؤمنوا !! ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ﴾ أي: ما أفادهم، ولا أفادوا من حواسهم ﴿سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أبداً ولو كان قليلاً، ﴿إِذْ كَانُوا﴾ مثلكم ﴿يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ ولا يؤمنون، ﴿و﴾ لذلك: ﴿حَاقَ﴾ نزل ﴿بِهِمْ﴾ من العذاب ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ !! فاحذروا، وآمنوا، ولا تستهزؤا.

ثم يقول لهم ربنا عز وجل أيضاً:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءِلَٰهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾ أيضاً ﴿مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ﴾ يا كفار مكة.

وذلك: لكفرهم، وعنادهم.

﴿و﴾ كنا قد ﴿صَرَّفْنَا﴾ كررنا ونوعنا لهم ﴿الْآيَاتِ﴾ والدلائل، على وحدانيتنا وقدرتنا ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن عنادهم وكفرهم.

ولكنهم لم يؤمنوا، فأهلكناهم، ﴿فَلَوْلَا﴾ فهلاً ﴿نَصْرُهُمْ﴾ ومنع عنهم هذا العذاب ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وهي الأصنام، التي كانوا يعبدونها، فيما يزعمون ﴿قُرْبَانًا﴾ تقربهم من الله، ويجعلونها ﴿ءِلَٰهَةً﴾ !! أبداً، لم يحدث، ولم تنصرهم، ﴿بَلْ ضَلُّوا﴾ وغابوا ﴿عَنْهُمْ﴾ في وقت الشدة، وهو وقت إهلاك الله لهم، ﴿وَذَٰلِكَ﴾ العذاب: نتيجة إفكهم وكذبهم في اتخاذ الآلهة، ﴿وَمَا كَانُوا يَفْقَرُونَ﴾

على الله، وعلى الرسل.

هذا وبعد أن بيّن ربنا تبارك وتعالى أن في الإنس من آمن وله ثوابه، ومن كفر وعليه عقابه!! يبيّن أيضًا: أن الجن فيهم، من آمن وهو معرض للثواب، وفيهم من كفر وهو معرض للعقاب، فقال تعالى:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿و﴾ اذكر لهم ليعتبروا ﴿إِذْ صَرَفْنَا﴾ وجّهنا ﴿إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ منك حينما تتلوّه، ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ واستمعوا إليه ﴿قَالُوا﴾ لبعضهم البعض ﴿أَنصِتُوا﴾ لنسمع جيدًا، ونفهم جيدًا، واستمعوا وفهموا، ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ وفرغ النبي ﷺ من التلاوة ﴿وَلَّوْا﴾ عادوا ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ من الجن ﴿مُنْذِرِينَ﴾ لهم.

ماذا قالوا لقومهم؟

﴿قَالُوا يَكْفُومَنَّا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾

﴿قَالُوا﴾ أي هذا النفر، الذين استمعوا إلى القرآن لقومهم: ﴿يَكْفُومَنَّا إِنَّا سَمِعْنَا﴾ أي: استمعنا إلى القرآن، ثم وصفوا لقومهم هذا الذي استمعوا إليه بهذه الأوصاف:

- الأول: ﴿كِتَابًا﴾ يماثل الكتب الإلهية، وهو القرآن.
- الثاني: ﴿أُنزِلَ﴾ أي: أنه ليس من صنع البشر، بل هو منزل من الله تعالى رب البشر.
- الثالث: ﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ أي: من بعد الكتاب الذي نُزِّلَ على موسى ﷺ.
- الرابع: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لما سبقه من الكتب؛ حيث يدعو إلى التوحيد، والنبوة، والإيمان باليوم الآخر، ومكارم الأخلاق، كما كانت تدعو هي أيضًا.
- الخامس: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ وهو إسلام الوجه لله.

السادس: ﴿و﴾ ويهدي ﴿إِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ في الأقوال والأفعال.

وبعد أن وصفه لهم هذا الوصف، قال:

﴿يَقَوْمًا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣١)

نعم، ما دام الذي استمعوا إليه بهذا الوصف: إذا يجب اتباعه، ولذلك قال لهم: ﴿يَقَوْمًا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ إلى الإيمان، وهو محمد ﷺ ﴿وآمِنُوا بِهِ﴾ وبما جاء به، ولو فعلتم ذلك: كانت النتيجة خيرًا، حيث ﴿يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾، كذلك ﴿وَيُجِرْكُم﴾ وينقذكم ﴿مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ في يوم القيامة.

وبعد أن شوقهم إلى هذه النتائج الطيبة إذا آمنوا، حذرهم من النتائج السيئة إذا لم يؤمنوا، حيث قال لهم:

﴿وَمَن لَّا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٣٢)

يعني: ﴿وَمَن لَّا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ﴾ منكم ويصرُّ على الكفر!! ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ﴾ أي: هارب، وناج، من عذاب الله، بالاختفاء في أي مكان ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ على سعتها ﴿و﴾ كذلك ﴿لَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ يدافعون عنه، أو يمنعون نزول العذاب به، حقًا.. ﴿أُولَئِكَ﴾ الذين لا يؤمنون به ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وضياح كبير.

ثم يقيم ربنا الدلائل على قدرته سبحانه على ما خُوف الجنِّي به قومه، وعلى ما خُوف به سبحانه كفار مكة، حيث يقول جل جلاله:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغْنَبْهُنَّ بِقَدْرِ عَلَى أَن يُجْحَى الْمَوْتُ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٣)

نعم، ﴿أ﴾ غفلوا ﴿وَلَمْ يَرَوْا﴾ أي كفار الإنس والجن ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ عز وجل ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ على هذا النحو البديع ﴿وَلَمْ يَغْنَبْهُنَّ﴾ ولم يعجز عن خلقهن!! أغفلوا عن أنه سبحانه، كما قدر على ذلك ﴿بِقَدْرِ عَلَى أَن يُجْحَى

الْمَوْتِ؟ ﴿بَلَىٰ إِنَّهُمْ﴾ قادر على بعث الموتى، وهو عز وجل كذلك ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء.

ثم يقول سبحانه واعظاً لهم:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٣٤)
﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ فيفزعون، ويُعذبون فيها فيتألمون، .

ويقال لهم تقريباً وتوبيخاً على استهزائهم الذي كانوا يقابلون به وعد الله ووعيده لهم وهم في الدنيا: ﴿أَلَيْسَ هَذَا﴾ العذاب ﴿بِالْحَقِّ﴾ هو الحق الذي كنتم به تكذبون؟! ولا يملكون حينذاك إلا الاعتراف ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾: إنه هو الحق، فيقال لهم: إذن ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ خالدين فيه مخلدون.

وبعد هذه الحوارات الطويلة في إقناع الكفار بالإيمان، ثم إصرارهم على ما هم عليه، يكون الأمر الأخير للنبي ﷺ بالصبر، إذ يقول سبحانه له:

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغَ فَبَلَ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٣٥)

أي: ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد على عنادهم معك، وأذيتهم لك ﴿كَمَا صَبَرَ﴾ من قبلك على مثل ذلك ﴿أُولُوا الْعَزْمِ﴾ أصحاب الصبر على الشدائد، والثبات في الأزمات ﴿مِّنَ الرُّسُلِ﴾ إخوانك، الذين أرسلناهم من قبلك، ﴿و﴾ كذلك اصبر ﴿لَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ العذاب فهو آت لا محالة، ونازل بهم بالضرورة، ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب في الآخرة ﴿لَمْ يَلْبُثُوا﴾ وقيموا في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾ فقط، هذا ﴿بَلَّغَ﴾ وفيه الكفاية لمن أراد أن يتعظ، وأن يهتدي، وأما من لا يتعظ ولا يهتدي، فمصيره الهلاك، إذ: ﴿فَبَلَ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن طاعة الله؟

أبداً، وحاشا لله أن يكون غير ذلك!!

فهو سبحانه وتعالى الحكيم العادل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة محمد

وهي سورة مدنية، تبدأ بقوله عز وجل:

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۖ﴾ (١) ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۖ﴾ (٢)

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ اعتقاداً ﴿وَصَدُّوا﴾ الناس، ومنعواهم بسلوكهم وإمكاناتهم ﴿عَنْ﴾ اتباع ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ودينه وهو الإسلام، هؤلاء: ﴿أَضَلَّ﴾ الله وأحبط وأضاع ثمرة أَعْمَالِهِمُ الحسنة في الآخرة، حتى وإن نالوا بعضها في الدنيا.

﴿و﴾ أما ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ اعتقاداً ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ سلوكاً، ﴿وَعَمِلُوا﴾ وثقوا ﴿بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ وهو القرآن ﴿و﴾ أيقنوا أنه ﴿هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وعملوا به، هؤلاء: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ﴾ وغفر لهم ﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾ التي وقعت منهم، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ لهم ﴿بَالَهُمْ﴾ أي: حالهم. ويبين ربنا السبب، فيقول جل وعلا:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ۖ﴾ (٣)

﴿ذَلِكَ﴾ أي إضلال أعمال الكافرين، وتكفير سيئات المؤمنين وإصلاح بالهم: ﴿ب﴾ سبب: ﴿أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ وهو الشيطان فأضلهم، ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ

﴿أَمْنُوا﴾ خالفوا الشيطان، و ﴿اتَّبِعُوا الْحَقَّ﴾ الذي جاء ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وهو القرآن، ﴿كَذَلِكَ﴾ البيان ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾ ليهتدوا.

ولمَّا بَيَّنَّ ربنا تبارك وتعالى، أن الذين كفروا: أضل عز وجل أعمالهم!!

ومن المعلوم أن اعتبار الإنسان، وقيمته: تكون بالعمل الصالح، وأن مَنْ لا عمل له: فهو همج، لا فائدة منه، وإعدامه خير من وجوده، لذا: لمَّا كان الكفار بلا عمل، بل أعمالهم شريرة ضالة، ضارة، أمر ربنا بقتالهم، فقال:

﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَٰكِنْ لَّيَبْلُوًا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴿٦﴾﴾

أي: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في ساحات القتال، وهم يصدون الناس عن سبيل الله، ويؤذون خلق الله ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ لهم منكم، أي: فاضربوا رقابهم واقتلوهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ﴾ بكثرة القتل فيهم، وسهّل أسرهم ﴿فَشُدُّوا الْوَتَاقَ﴾ يعني فأسروهم، حتى تنتهي الحرب، ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ﴾ أي: بعد انتهاء الحرب منكم عليهم، بتركهم وإطلاق حريتهم، ﴿وَإِمَّا فِدَاءً﴾ أي: تحصلون على فداء لهم بمال، أو بتبادل أسرى من المسلمين معهم، وذلك ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي: أثقالها، وتنتهي، ﴿ذَٰلِكَ﴾ هو المطلوب لحكم يعلمها الله، ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ﴾ هزيمتهم ﴿لَآنصَرْنَا مِنْهُمْ﴾ بدون قتال ﴿وَلَٰكِنْ﴾ شرع ذلك ﴿لَيَبْلُوًا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ وينتصر الحق على الباطل!! ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا﴾ من المؤمنين ﴿فِي سَبِيلِ﴾ الدفاع عن دين ﴿اللَّهِ﴾: فأجرهم عظيم على النحو التالي:

أولاً: ﴿فَلَن يُضِلَّ﴾ ويضيع ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ بل ينميها لهم، ويأجرهم عليها.

ثانياً: ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ إلى الجنة، ليدخلوها.

ثالثاً: ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ حيث ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

رابعاً: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا﴾ طيبها وزينها وحملها ﴿هَمًّا﴾.

هذا ما لهم في الآخرة..

وأما الذي في الدنيا: فيعدهم الله بالنصر والتثبيت، حيث يقول المولى عز وجل:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نُّصَرُّوْا اللَّهَ يَنْصُرْكُم وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾
يعني: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نُّصَرُّوْا﴾ دين الله، فإن ﴿اللَّهُ﴾ ورسوله:
﴿يَنْصُرْكُم﴾ على عدوكم بشتى أنواع النصر، ﴿وَيُثَبِّتْ﴾ على الحق، وعلى مبادئ
الإسلام، وفي ساحات الجهاد ﴿أَقْدَامَكُمْ﴾ وهذا: عن المسلمين وشهادتهم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ ءَاضِلٌ أَعْمَلَهُمْ ﴿٨﴾﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا
أَعْمَلَهُمْ ﴿٩﴾﴾

﴿و﴾ أما ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إن كانوا أحياء بعد القتال: ﴿فَتَعَسَا لَهُمْ﴾ أي: هلاكاً
ينتظرهم، وتعاسة يعيشون معها، وخيبة أمل في أهدافهم، ﴿وَاضِلٌ أَعْمَلَهُمْ﴾ إن قُتِلُوا
في هذه المعارك، التي عملوها في الدنيا، ولو كانت أعمالاً جيدة؛ حيث يدخلون النار.

﴿ذَلِكَ﴾ الجزاء: ﴿بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا﴾ وحاربوا المؤمنين، و ﴿مَا أُنْزِلَ اللَّهُ﴾ من
تشريع ومنهاج، ﴿فَاحْبَطُوا﴾ الله ﴿أَعْمَلَهُمْ﴾ وأضاع ثوابها، ولا غرابة في ذلك!!

ثم يقول المولى سبحانه:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
وَالْكَافِرِينَ أََمْثَلَهَا ﴿١٠﴾﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾﴾
﴿أ﴾ قعد هؤلاء الكافرون ﴿فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾ إلى آثار السابقين؛
فيعرفوا ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ﴾ كذبوا وعاندوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾؟ لقد ﴿دَمَّرَ﴾
﴿اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بلادهم وأهلكهم، وأبادهم، ونجى المؤمنين، ﴿و﴾ ليعرفوا: أنه
﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ من أهل مكة ومن غيرهم ﴿أَمْثَلَهَا﴾ أيضاً.

﴿ذَلِكَ﴾ التدمير للكافرين، والإنجاء للمؤمنين ﴿ب﴾ سبب: ﴿أَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ
ءَامَنُوا﴾ حيث اتخذوه لهم ولياً، ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ يمنع عنهم العذاب.

وإذا كان الحديث عن إهلاك الكافرين، فيه نوع من النصرة للمؤمنين!!

فإنه عز وجل يحدثنا عن نوع آخر من هذه النصرة الإلهية للمؤمنين. حيث يقول:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَمُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ۖ﴾ (١٢)
 ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ ينصر أوليائه، حيث ﴿يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ جزاء لهم ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، ﴿و﴾ أما ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: فلا يغرنكم يا مؤمنين ما هم فيه؛ فإنهم ﴿يَتَمَنَّوْنَ﴾ بمتاع الدنيا أياماً قلائل ﴿وَيَأْكُلُونَ﴾ بشراهة، غافلين عن مصيرهم ونهايتهم ﴿كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَمُ﴾ بشراهة، غافلة عما ينتظرها من الذبح، ﴿و﴾ بعد هذه الحياة: تكون ﴿النَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ أي: دار إقامة لا يخرجون منها. ثم يقول ربنا للحبيب ﷺ:

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرِيْبَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرِيْنِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ۖ﴾ (١٣)
 أي: وكم ﴿مِّنْ قَرِيْبَةٍ﴾ كانت ﴿هِيَ﴾ وأهلها ﴿أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرِيْنِكَ﴾ مكة ﴿الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ﴾ يعني أخرجك أهلها؟! إنهم كثير!! وقد ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ لما كفروا وعاندوا ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ من هذا الهلاك، فليعتبر كفار مكة بذلك...!!

وبيّن ربنا الفرق بين النبي ﷺ وبين معانديه، فيقول جل وعلا:

﴿أَفَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوْءُ عَمَلِهِ ۚ وَأَتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ﴾ (١٤)
 أبداً، والله لا يستويان!!

ليس محمد ﷺ الذي هو ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ ودليل واضح، وصراط مستقيم ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوْءُ عَمَلِهِ﴾ فرآه حسناً، أي: من هؤلاء الكفار، ﴿وَأَتَّبَعُوا﴾ بالتالي ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ وتركوا دين الله، وإذا كان هذا هو الفرق بين المهتدين، وبين الضالين في الدنيا: فالفرق كبير بينهما في الآخرة.

يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ﴾ (١٥)

هذا ﴿مَثَلُ﴾ أي: وصف ﴿الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ بها، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات.. ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ ماء جار، لا يتغير طعمه، ولا لونه، ولا رائحته، ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ﴾ كما تتغير ألوان الدنيا، ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ﴾ ليست كخمر الدنيا، لا تذهب عقل شاربها، ولا كريهة في نفسها، بل ﴿لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ لا تعادلها لذة، ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾، ﴿وَلَهُمْ فِيهَا﴾ مع ذلك: ﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ ألوان وألوان ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ - فوق كل هذا - ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ فهو سبحانه راضٍ عنهم، مع إحسانه إليهم.

أهذا الجزاء الطيب والنعيم الدائم للمتقين ﴿كَمَنْ﴾ أي: مثل جزاء الكافر الذي ﴿هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ لا يخرج منها ولا يستريح فيها أبداً، ﴿و﴾ فوق ذلك ﴿سُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ حاراً شديد الحرارة لا يُتَحَمَّلُ أبداً، ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ في بطونهم؟!!!

هذا، ولما كان حديث السورة من أولها إلى هنا، عن الكافرين والمؤمنين، وجزاء كل منهما: يبدأ هنا حديث عن صنف جديد من الناس، لم يظهر في العهد المكي للإسلام، وهم المنافقون، يقول الحق سبحانه:

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَفَقَا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ (١٦)

أي: ومن الكفار ﴿مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ وهم المنافقون ﴿حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ﴾ وقد سمعوا القرآن، ﴿قَالُوا﴾ استهزاء وسخرية ﴿لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من المسلمين ﴿مَاذَا قَالَ أَفَقَا﴾ أي: حالياً؛ لأننا لم نفهم ما قال؟! ﴿أُولَئِكَ﴾ هم الذين طبع الله على قلوبهم، بالكفر فلا يعقلون، ﴿و﴾ هم كذلك: الذين ﴿اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ وخالفوا فطرتهم.

﴿وَالَّذِينَ أَهْدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ يَقُولُهُمْ﴾ (١٧)

﴿و﴾ أما ﴿الَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ إلى الله، وسلوكوا الطريق لمرضاته: ﴿زَادَهُمْ﴾ الله كرمًا منه ﴿هُدًى﴾ على هداهم، ﴿وَأَنذَهُمْ﴾ أي: أعانهم على ﴿تَقْوَاهُمْ﴾ ووفقهم إليها للعمل بما أمرهم به.

وبعد أن اتضح الفرق بين الهدى والضلال !! ماذا ينتظر الكافرون ؛ ليؤمنوا؟

﴿فَهَلْ يُنظَرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ (١٨)

﴿فَهَلْ يُنظَرُونَ﴾ أي: ينتظرون، وهم الكافرون والمنافقون ﴿إِلَّا السَّاعَةَ﴾ أي: القيامة ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ فجأة، وهم في لهوهم غافلون عنها؟ فاحذروا وآمنوا، ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي: علاماتها التي تشير إلى قرب وقوعها، ﴿فَأَنَّى لَهُمْ﴾ فكيف يتصرفون ساعتها ﴿إِذَا جَاءَهُمْ﴾ بغتة؟ وكيف تنفعهم يوم القيامة ﴿ذِكْرُهُمْ﴾ لها، واعترفهم بها؟.

ولما قال ربنا تبارك وتعالى عن يوم القيامة: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ !! خاطب النبي ﷺ - والمراد أمته - قائلاً:

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ (١٩)

أي: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ وحده يأتي بالساعة، وبالتالي: ﴿اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ لتستن أمتك بذلك، وتتعلم الاستغفار من الذنوب. والمعنى: فاثبت على التواضع، باستغفار ذنبك، وذنوب من على دينك، وقد فعل النبي ﷺ ذلك، حيث كان يستغفر ربه في كل يوم مائة مرة، هذا ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ في مصالحكم نهاراً ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ في مضاجعكم ليلاً، ولا يخفى عليه شيء منكم. فاحذروه!!

وبعد أن ذكر الله عز وجل موقف المنافقين عند سماع القرآن بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ﴾ [محمد: ١٦]، وموقف المؤمنين عند ذلك بقوله: ﴿وَالَّذِينَ

أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى ﴿محمد: ١٧﴾ وَضَحَ مَوْقِفَهُمْ جَمِيعاً مِنْ آيَاتِ الْجِهَادِ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوَّ صَدَفُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ طلباً للجهاد، وحباً في رفع راية الإسلام: ﴿لَوْلَا﴾ هَلَّا ﴿نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ فيها الأمر بالقتال !! ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ﴾ واضحة لا نسخ فيها ولا تأويل لها، ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ واضحاً!! ماذا يفعل المنافقون؟

يقول عز وجل: ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ المنافقين ساعتهما ﴿يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ﴾ خائفين ﴿نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾، وهذا: موقف سيء ما كان ينبغي منهم، ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ﴾ من ذلك، أن يكون موقفهم: ﴿طَاعَةٌ﴾ لله ورسوله، ﴿وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ حسن لك، بدلاً من كلامهم السيئ.

على أية حال: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أي: فرض القتال، وحانت ساعته!! ﴿فَلَوْ﴾ أنهم ﴿صَدَفُوا اللَّهَ﴾ وآمنوا به، وأطاعوا ﴿لَكَانَ﴾ هذا الصدق والإيمان، وهذه الطاعة ﴿خَيْراً لَهُمْ﴾ من كراهيتهم للجهاد.

ثم يقول لهم ربنا جل شأنه وعظم سلطانه:

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْرَ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ ﴿٢٤﴾

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ أي: لعلكم ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن طاعة الله، والجهاد في سبيله: ﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بغيّاً ﴿وَتَقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ ظلماً!!

الذين يفعلون هذا، يقول المولى عنهم: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ وطردهم من رحمته ﴿فَأَصْمَهُمْ﴾ عن سماع الحق ﴿وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ عن سلوك طريق الهدى.

ولا يتركهم المولى حيارى، بل يرشدهم إلى ما يأخذ بأيديهم، ويعيدهم إلى الصواب، فيقول: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ ؟

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ فيعرفون طريق الهدى والفلاح، ﴿أَمْ﴾ أنهم أصحاب ﴿قُلُوبٍ﴾ عليها ﴿أَقْفَالُهَا﴾ فلا تستجيب لهداية، ولا تحب رشاداً؟ هؤلاء إذن: قد ارتدوا عن الإيمان، والله عز وجل يقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۖ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۖ﴾

﴿إِنَّ﴾ هؤلاء ﴿الَّذِينَ ارْتَدُوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم﴾ من الإسلام إلى الكفر ﴿مِّن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ و اتضح لهم الحق: ﴿الشَّيْطَانُ﴾ هو الذي ﴿سَوَّلَ﴾ حسن ﴿لَهُمْ﴾ هذا الكفر ﴿وَأَمْلَىٰ﴾ مد في الأمانى ﴿لَهُمْ﴾ وغرهم وخدعهم.

والسبب في ذلك: ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ للكافرين، ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ وصدوا الناس عن سبيل الله سراً ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾، وهو تشييط الناس عن الجهاد مع رسول الله ﷺ، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ كما يعلم علانيتهم، وسيجازيهم أسوأ الجزاء. هؤلاء فزعوا من القتال، وبعثوا عن ساحات الجهاد.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ۖ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْحَبَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۚ﴾ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَنَهُمْ ۖ﴾ ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَمَرْنَاكُمُ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ۖ﴾

يعني ﴿فَكَيْفَ﴾ حالهم، وماذا يفعلون ﴿إِذَا﴾ جاء أجلهم، و ﴿تَوَفَّتْهُمُ﴾

قبضت أرواحهم ﴿أَلَمَلَيْكَةُ﴾ وهم ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ﴾ ؟!

﴿ذَلِكَ﴾ التعذيب لهم ساعة الموت ﴿يَأْتَهُمْ أَتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ﴾ عليهم ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾، ﴿فَأَحْبَطَ﴾ أضاع وأبطل الله - بالتالي - ﴿أَعْمَلَهُمْ﴾ فلم يقبلها منهم، مهما كانت حسنة. ﴿أَمْ﴾ هل ﴿حَسِبَ﴾ هؤلاء المنافقون ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ وفصلت أحوالهم الشنيعة: ﴿أَن لَّن يَخْرُجَ﴾ يظهر ﴿اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَضْغَنَهُمْ﴾ أحقادهم على الإسلام وأهله؟

إن كان ذلك: فهو فهم خاطئ، وظن سيئ، وتصور جاهل. ﴿وَلَوْ شَاءَ﴾ يا محمد ﴿لَأَرْبَنَكُمُ﴾ ودللتناك عليهم ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾ بعلاماتهم، التي تظهر على وجوههم، ﴿وَلَعَرَفْتَهُمْ﴾ كذلك ﴿فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ حيث لا يستطيعون كتمان ما بأنفسهم من الحقد والكراهية للإسلام وأهله، ثم يقول ربنا للمؤمنين بعد هذه التعرية للمنافقين: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ﴾ فيجازيكم عليها بحسب قصدكم.

ثم يقول لهم كذلك:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَخْبَارَكُمْ﴾ ﴿٣١﴾

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ بالجهاد ﴿حَتَّى نَعْلَمَ﴾ أي: نظهر ﴿الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ﴾ الصادقين في الجهاد، ﴿وَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ كذلك ﴿أَخْبَارَكُمْ﴾ كلها، سرها وعلاقتها. أيها المؤمنون:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَصْرِوْا اللَّهُ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ﴾ ﴿٣٢﴾

اعلموا أن هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات الثلاث وهي: الكفر، والصد عن دين الله، وعداوة الرسول ﷺ، وذلك ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ﴾ الحق، وعرفوا ﴿الْهُدَىٰ﴾ هؤلاء: ﴿لَن يَصْرِوْا﴾ دين الله ﴿شَيْئًا﴾ بل يضررون أنفسهم ﴿وَسَيُحِطُّ﴾ الله ﴿أَعْمَلَهُمْ﴾ من صدقة ونحوها، فلا يرون لها في الآخرة ثوابًا. لذلك:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٣)

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ لا تكونوا كهؤلاء، بل ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ فامتثلوا لأوامره، واجتنبوا نواهيه، ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في شخصه حيًا، وبإحياء سنته، والعمل بها بعد وفاته ﷺ، ﴿وَلَا تُبْطِلُوا﴾ بالنفاق والرياء، أو الردة ﴿أَعْمَالَكُمْ﴾، نعم:

﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾، حيث:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ (٣٤)

﴿إِنَّ﴾ هؤلاء ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا﴾ غيرهم ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وظلوا على ذلك ولم يتوبوا ﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ على هذا الحال: ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ لأن الله تعالى قال في محكم كتابه:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦].

﴿فَلَا تَهِنُوا وَدَعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٥)
﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ وتذلوا ﴿وَدَعُوا﴾ عدوكم ﴿إِلَى السَّلَامِ﴾ والمصالحة ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ عليهم قوة، والأكثر منهم عددًا، ولا تهادنوهم إلا عند الضرورة التي يقدرها الإمام، ﴿و﴾ اعلموا أن الله ﴿مَعَكُمْ﴾ سينصركم عليهم. ﴿و﴾ كذلك ﴿لَنْ يَتَرَكَمُ﴾ وينقص سبحانه ﴿أَعْمَالَكُمْ﴾، بل يضاعف لكم ثوابها.

يا أيها الذين آمنوا:

﴿إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلَكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ (٣٦)

﴿إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ لا قيمة لها، فهي ﴿لَعِبٌّ وَلَهُوَ﴾ للمتعلق بها، فاحذروا أن تشغلكم عن طاعة الله، وأن تفتنكم بزيبتها.

﴿و﴾ لذلك: ﴿إِنْ تُؤْمِنُوا﴾ بالله ﴿وَتَتَّقُوا﴾ محارمه ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ فضلاً منه وكرماً ﴿أُجُورَكُمْ﴾ وثواب أعمالكم الصالحة، ﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ﴾ أيضاً: أخذ أموالكم؛ لأنه سبحانه غني عنكم، وعن عباده جميعاً، وما تدفعونه في الصدقات والزكاة: فنفعها لكم. وذلك لأنه:

﴿إِنْ يَسْأَلْكُمْ هَا فِيْ حِفْظِكُمْ تَبْخُلُوا وَيُخْرِجْ أَصْفَنَكُمْ﴾ (٣٧)

يعني ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمْ هَا﴾ هذه الأموال ﴿فِيْ حِفْظِكُمْ﴾ أي: يفرض عليكم دفعها كلها ﴿تَبْخُلُوا﴾ بها، وبذلك البخل ﴿يُخْرِجْ﴾ ويظهر ﴿أَصْفَنَكُمْ﴾ أي: دخائل نفوسكم من تفضيل الأموال والأولاد، والدنيا على نصره الدين، والدليل:

﴿هَآأَنْتُمْ هَآؤَآَاءٌ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ (٣٨)

﴿هَآأَنْتُمْ هَآؤَآَاءٌ﴾ الآن، وفي كل آن ﴿تُدْعَوْنَ﴾ من الله ﴿لِتُنْفِقُوا﴾ من أموالكم ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ونصرة الدين، ﴿فَمِنْكُمْ﴾ من يجود بماله، ومنكم ﴿مَّنْ يَبْخُلُ﴾ بماله. ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ﴾ ولا ينفق في سبيل الله ﴿فَإِنَّمَا يَبْخُلُ﴾ بالخير والثواب ﴿عَنْ نَفْسِهِ﴾، ﴿وَاللَّهُ﴾ عز وجل ﴿الْغَنِيُّ﴾ عن كل ما سواه، ﴿وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ دائماً، وفي كل شيء إليه سبحانه وتعالى، فلا تبخلوا بمالكم عن الإنفاق في سبيل الله، ولا تقصروا في طاعة الله عز وجل، ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا﴾ تعرضوا عن طاعته، أو عن الجهاد: ﴿يَسْتَبْدِلْ﴾ سبحانه بكم ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يحملون هذا الدين، ويرفعون رايته، وينشرون مبادئه ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ في التخلي عن نصرة الإسلام، بل يكونون أطوع لله منكم، وأكثر للدين نصرة، ولأهله حماية، وعن حرمانه دفاعاً، ويجاهدون في سبيله بأموالهم وأنفسهم.

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الفتح

وهي سورة مكية، تبدأ بقوله عز وجل:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا ﴿٣﴾﴾
﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ يا محمد المستقبل، وأبواب الخير لك ولدعوتك، ولأمتك بصلح
الحديبية مع المشركين، وجعلناه ﴿فَتْحًا مُبِينًا﴾ واضحاً ظاهراً؛ حيث أمن الناس
الحروب، وانتشر الإيمان.

وكان ذلك؛ لتصل هذه النعم:

الأولى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ حتى ترغب أمتك في
الجهاد، والمسارة إلى طاعة الله.

الثانية: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ في الدنيا والآخرة؛ بإعلاء دينك، وفتح البلاد
على يدك.

الثالثة: ﴿وَيَهْدِيَكَ﴾ بما يشرع لك، وينزل عليك ﴿صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ لا عوج فيه
ولا انحراف.

الرابعة: ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ﴾ بالجهاد على أعدائك ﴿نَصْرًا عَزِيمًا﴾ لا ذل بعده.

ثم بيّن ربنا: بعض أدوات النصر، فيقول سبحانه وتعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾

﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ وهي: الطمأنينة يوم صلح الحديبية ﴿فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين استجابوا لله ولرسوله ﷺ، وانقادوا طواعية، وذلك ﴿لِيَزَادُوا﴾ بهذا الاطمئنان، والرضى بحكم الله ورسوله ﴿إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ أي: ثقة وبقينا مع ثقتهم، ﴿وَ﴾ هكذا فَإِنَّ ﴿لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ التي ينصر الله بها عباده.

ومن جنوده: هذه السكينة، التي نزلت على قلوبهم عندما أحس بعضهم بهذه الراحة النفسية عند هذه المعاهدة.

﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ عز وجل ﴿عَلِيمًا﴾ بقلوب عباده، وكيف يصلحها ﴿حَكِيمًا﴾ في أقواله، وأفعاله، وأحكامه المبنية على علمه المحيط سبحانه!!

رُوي أن الصحابة رضوان الله عليهم عندما نزلت هذه الآيات، قالوا للنبي ﷺ: هنيئاً لك إن الله غفر لك، فماذا لنا؟

فنزل قوله تعالى:

﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾

أي: ﴿لِيَدْخُلَ﴾ الله عز وجل ﴿الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ بهذا الجهاد والثقة والطاعة ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ للإقامة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبداً، ﴿وَ﴾ كذلك ﴿يُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾، ويصفح عنهم فلا يعاقبهم عليها، ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ الإدخال في الجنة، والتكفير للسيئات ﴿عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ لا يعادله فوز آخر يحصل عليه الإنسان.

ومن أدوات النصر للمؤمنين: تعذيب الله لأعدائهم، يقول الحق سبحانه:

﴿وَيُعَذِّبُ الْمُتَفَقِّينَ وَالْمُتَفَقِّتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ﴾ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾

﴿وَيُعَذِّبُ﴾ الله ﴿الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾ لشدة عداوتهم، وضررهم بالمؤمنين، ﴿و﴾ يعذب كذلك ﴿الْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ لحربهم لله ولرسوله، كل هؤلاء ﴿الظَّالِمِينَ﴾ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوْءِ ﴿الَّذِينَ كَانُوا يَتَّخِذُونَ اللَّهَ فِي حُكْمِهِ، وَيَشْكُونَ فِي آيَاتِهِ، وَيُظَنُّونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ الْهَزِيمَةَ: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ جميعاً تدور ﴿دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ وهي: العذاب والهلاك، ﴿و﴾ كذلك ﴿غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، ﴿و﴾ أيضاً ﴿لَعَنَهُمْ﴾ طردهم من رحمته، وحرّمهم نهائياً منها.

هذا في الدنيا، ﴿و﴾ أما في الآخرة، فقد ﴿أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ فأصبحت دارهم ومصيرهم ﴿وَسَاءَتْ﴾ لهم داراً و ﴿مَصِيرًا﴾.

ثم يَنْبَهُ ربنا تبارك وتعالى على قدرته من الانتقام من أعداء الإسلام، فيقول جل وعلا: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَزِيرًا حَكِيمًا﴾ ﴿٧﴾ ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ التي يدفع بها كيد أعداء الإسلام، ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَزِيرًا حَكِيمًا﴾ أي عزيزاً في ملكه وسلطانه، حكيماً في صنعه وتدييره.

هذا ويشرف الله حبيبه، ويحدد له مهمته، بقوله تعالى:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٨﴾

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمد برسالتنا للناس جميعاً، ﴿شَهِيدًا﴾ عليهم بالإيمان لمن آمن، وبعدمه لمن لم يؤمن، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين بالجنة، ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين بجهنم، وغضب الله.

وبيّن ربنا تبارك وتعالى: فائدة إرسال النبي على هذا الوجه المذكور، بقوله عز وجل:

﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ﴿٩﴾

أي: أرسل سبحانه وتعالى النبي هكذا ﴿لِتُؤْمِنُوا﴾ أيها الخلق جميعاً، وتصدقوا ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ﷺ، ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ سبحانه وتعالى وتعزير الله: نصرته دينه ورسوله، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ سبحانه وتعالى أي: تعظموه، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: تسبحوا ربكم في الصباح والمساء؛ ليكون القلب متصلاً بالله في كل آن.

ثم تبيّن الآيات أن من بايع النبي ﷺ صورة: فقد بايع الله حقيقة، إذ تقول الآيات:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ بيعة الرضوان بالحديبية ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ حقيقة؛ لأن في ذلك مرضاة لله، وإعزازاً لدينه، ونصرة لأهله، هؤلاء ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ التي بايعوا بها النبي ﷺ، يعني هو سبحانه مطلع عليهم، وعالم بهم، وسيجازيهم على ذلك خيراً، ﴿فَمَنْ نَكَثَ﴾ مبايعته لله، ونقض العهد، ولم يف: ﴿فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ والضرر لا يعود إلا عليه، والله عز وجل غني عنه، وعن عباده كلهم، ﴿و﴾ أما ﴿مَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ﴾ في بيعته: ﴿فَمَسِيئَتُهُ﴾ المولى عز وجل ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهو الجنة.

هذا ولما ذكر الله أهل بيعة الرضوان، وأضافهم إلى حضرة الرحمن: بين حال من تخلف عن رسول الله ﷺ، ولم يسعد بهذه البيعة، فقال تعالى:

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُتِ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾﴾

يعني إذا رجعت يا محمد إلى المدينة ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ عنك؛ اعتذاراً ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ عن الذهاب معك، ونحن مُقرُّون بالخطأ!! لذلك ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ ربك، واعف عنا، واقبل عذرنا، ويكذبهم السميع العليم، ويعلم حبيبه والدنيا كلها بكذبهم هذا؛ حيث يقول: هؤلاء يكذبون، و ﴿يَقُولُونَ بِآلِسِنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ واعتذارهم نفاق، وطلبهم الغفران نفاق، فلا تصدقهم، و ﴿قُلْ﴾ لهم:

أولاً: لقد تخلفتم خوفاً من الضرر ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ﴾ إذن ﴿مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ

أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا؟ إنه لا أحد يملك ذلك بالطبع، ﴿بَلْ كَانَ﴾ أي: وكان ﴿اللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرًا﴾ يعلمه، ويجازيكم عليه.

ثم يكشف السبب الحقيقي لتخلفهم، فيقول:

ثانيًا: ﴿بَلْ﴾ لقد ﴿ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَنْقَلِبَ﴾ لن يعود ﴿الرَّسُولَ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ﴾ في المدينة ﴿أَبَدًا﴾ حيث سيقتلهم المشركون عن آخرهم وسينتهي أمرهم، وهذا: ظن خاطئ فاسد سيء. ﴿وَزُيِّنَتْ ذَٰلِكَ﴾ من جهة الشيطان ﴿فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فصدقتموه، ﴿وظننتم ظنَّ السَّوءِ﴾ الفاسد الخاطئ هذا، وبذلك ﴿كُنْتُمْ﴾ يعني: صرتم ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ فاسدين، خاسرين، هالكين لا خير فيكم.

﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ (١٣)

﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وصدق وعده، ﴿وَرَسُولِهِ﴾ وصدق قوله، ويخلص العمل لله في الظاهر والباطن: فقد كفر!! وعلى هذا: ﴿فإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ نازًا تُسْعَرُ بهم، ويعذبون فيها.

هذا الأجر العظيم: لمن بايع الله ورسوله، وهذا العذاب الأليم: لمن كذب الله ورسوله، وكل ذلك بقدرة الله، ومشيئته.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (١٤)

نعم هو المالك سبحانه، ولا مالك سواه لجميع الكون، وما فيه، ومن فيه. لذلك ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ من عباده بفضلله ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ من عباده بعدله، ولكن: مغفرته أوسع، ورحمته أعم ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ وما يزال ﴿عَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

سبق أن ذكرت الآيات الكريمة: المخلفين وأعدائهم !!

والآن تذكر الآيات: هؤلاء المخلفين وأكاذيبهم وأطماعهم، فتقول:

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِرِ لِنَأْخُذُهَا ذُرُونًا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْسُدُونَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾

﴿سَيَقُولُ﴾ لك ﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾ عن صلح الحديبية ﴿إِذَا انْطَلَقْتُمْ﴾ إلى خيبر جهادًا في سبيل الله، لإخضاعها لكلمة الله، وقد علموا أن فيها ﴿مَغَائِرَ لِنَأْخُذُهَا﴾ بعد النصر: ﴿ذُرُونًا﴾ اتركونا ﴿نَتَّبِعْكُمْ﴾ ونأتي معكم، ونجاهد معكم، وهم بذلك كاذبون؛ حيث لا يريدون الجهاد، بل يريدون الغنائم، لأنهم عرفوا وعد الله بالنصر على خيبر، كذلك ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ الذي جعل به غنائم خيبر لأهل الحديبية فقط، ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ ولن تخرجوا معنا، ﴿كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ﴾ هذا الحكم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل سؤالكم الخروج معنا، وانتبهوا لجدالهم معكم ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ لكم ردًا على ذلك: ﴿بَلْ﴾ أنتم ﴿نَحْسُدُونَا﴾ ولا تريدون الخير لنا.

وليس الأمر بالطبع أمر غنائم، ولا أمر حسد، ولكن الحقيقة غير ذلك؛ إذ هي عدم الفهم، ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لذلك انحصرت همتهم في الماديات فقط.

ثم يفتح الله باب التوبة لمن أراد الصلاح منهم، فيقول الحق سبحانه:

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقْتَلُونَهُمْ أَوْ تَسْلَمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا أَمْرَكُمْ اللَّهُ اجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لِلْمُخَلَّفِينَ﴾ من صلح الحديبية ﴿مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ الذين قلت لهم لن تتبعونا قبل ذلك، ويريدون التوبة: ﴿سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ من مشركي العرب، الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو الموت، تدعونهم إلى الإسلام، فإن أبوا ﴿تُقْتَلُونَهُمْ أَوْ تَسْلَمُونَ﴾!! ﴿فَإِنْ تَطِيعُوا﴾ وتنفروا لهذا

الجهاد، وتؤدوا هذه المهمة ﴿يُؤْتِكُمْ اللَّهُ﴾ الجنة ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾، ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا﴾ وتمتنعوا عن ذلك ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ يوم الحديبية ﴿يُعَذِّبُكُمْ﴾ الله ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في النار.

وبمناسبة التخلف عن الجهاد وتركه: يذكر الله تعالى الأعذار المبيحة لذلك: فيقول المولى سبحانه:

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَْعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٧)

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ﴾ وهما من أصحاب الأعذار الدائمة، ﴿وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾ دائماً إن كان مرضه لا يرجى منه الشفاء، ومدة المرض إن كان يرجى له الشفاء، ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الجهاد وغيره: ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ثواباً له، ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ أي: يُعرض عن الجهاد والطاعة ﴿يُعَذِّبْهُ﴾ الله ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا بالمذلة، وفي الآخرة بالنار.

وبعد أن بين الله تعالى: أن الذين يبايعون محمداً ﷺ ﴿إِنَّمَا يَبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]، يبين هنا سبحانه: أنه قد رضي عنهم، إذ يقول المولى عز وجل:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩)

يخبر ربنا تبارك وتعالى: أنه قد رضي ﴿عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين بايعوا النبي ﷺ على الجهاد ونصرة الدين، تحت الشجرة، يوم الحديبية، - وهم الذين يطلق عليهم: أهل بيعة الرضوان - حيث علم ﴿مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإخلاص والصدق والوفاء والسمع والطاعة، كما علم ما في قلوب المنافقين من المرض والنفاق.

لذلك: كافأهم رب العزة بعد هذا الرضا، خيراً كثيراً، ومن ذلك:

أولاً: ﴿أَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ وطمأن قلوبهم، وثبتهم في هذه اللحظات العصبية.

ثانياً: ﴿وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ بهذا الصلح الذي تم بينهم وبين أعدائهم، والذي ترتب عليه ما ترتب من نشر الدعوة، وغير ذلك من وجوه الخير.

ثالثاً: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ مادية ومعنوية من سائر الفتوحات الإسلامية، ابتداءً بخيبر، ومروراً بغيرها، ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ عز وجل ﴿غَنِيًّا﴾ كامل القدرة، منيع الجنب ﴿حَكِيمًا﴾ حيث جعل هلاك أعدائه على أيدي أوليائه.

ثم يكمل الله بيان مكافأته لأهل بيعة الرضوان، فيقول جل وعلا:

﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ﴿٢٠﴾

في هذه الآية الكريمة: يخاطب الله تبارك وتعالى أهل بيعة الرضوان، بما كافأهم به؛ بسبب صلح الحديبية، فيضيف سبحانه - أيضاً - ما يلي:

رابعاً: ﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ في المستقبل ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ﴾

مغانم ﴿هَذِهِ﴾ الغزوة.

خامساً: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ﴾ من المشركين المواجهين لكم، واليهود الذين خلفتموهم مع عيالكم بالمدينة، ﴿و﴾ هكذا ﴿لِتَكُونَ﴾ هذه الكفة والمنع لهم عنكم، والحماية لكم ﴿آيَةً﴾ وعبرة ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعلمون بها أن الله ناصرهم؛ فتقوى بها قلوبهم.

سادساً: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ بسبب طاعتكم لله، وانقيادكم لرسوله، وبيعتمكم الصادقة ﴿صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ طريقاً قويمًا موصلًا إلى جنات النعيم.

سابعاً: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ ﴿٢١﴾

يعني ﴿و﴾ لكم مغنم أي مكاسب ﴿أُخْرَى﴾ غير ما سبق ذكره ﴿لَمْ تَقْدِرُوا﴾ وتحصلوا ﴿عَلَيْهَا﴾ حتى الآن!! وهي: بشارة بالانتصارات الإسلامية المستقبلية، التي ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ علمًا وقدره ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ عز وجل ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

ثم يشد الله من أزر المسلمين، ويقوّي من عزيمتهم؛ حيث يوضح لهم لوّنًا من قدرته، وسنة من سنته، إذ يقول جل جلاله:

﴿وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَرُ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٢٢) ﴿و﴾ اعلّموا أنه ﴿لَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يا أهل بيعة الرضوان: لنصركم الله عليهم، و ﴿لَوَلَّوْا الْأَذْبَرُ﴾ هربوا منكم ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ لهم من دون الله يدفع عنهم ما ينزل بهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يقف معهم. نعم، كان نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين:

﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (٢٣) حقًا، هذه سنة الله في خلقه: أنه ما تقابل الكفر والإيمان في موقعة فاصلة، إلا نصر الله الإيمان وأهله، على الكفر وأهله.

وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَرُ﴾ [الفتح: ٢٢].

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (٢٤)

يعني ﴿و﴾ لذلك ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿الَّذِي كَفَّ﴾ ومنع ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: الكفار عنكم، وكفَّ ﴿أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾ يوم بيعة الرضوان ﴿بِطَنِ مَكَّةَ﴾ أي: في الحديبية، وذلك ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ﴾ وسلطكم وأقدركم ﴿عَلَيْهِمْ﴾، ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ حيث جعل هذا الصلح خيرًا للمؤمنين في الدنيا والآخرة.

وهذا الكف والمنع للقتال: ليس لأنهم صالحوا أو انتهى النزاع معهم، بل إنهم:

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيْبِكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾

أي: لا يفرنكم هذا الصلح، أو يغيّر طبيعة الكفار في نظركم، فهم كما هم، !!

نعم، ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله تعالى، وحاربوا رسوله، ﴿و﴾ هم الذين ﴿صَدُّوكُمْ﴾ ومنعوكم ﴿عَنِ﴾ دخول ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ لأداء العمرة ﴿و﴾ منعوا ﴿الْهَدْيِ﴾ حالة كونه ﴿مَعْكُوفًا﴾ أي: محبوسًا، على ذمة الذبح عند الحرم ﴿أَنْ يَبْلُغَ حِلَّهُمْ﴾ ليتم ذبحه، وهذا: من بغيتهم وعنادهم، فلا تأمنوهم، ولا تغتروا بالصلح معهم، هذا ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ﴾ يقيمون بينهم، ويخفون إسلامهم ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ ولو حاربتم لكان الاحتمال ﴿أَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾ أي: تقتلونهم مع مَنْ تقتلون من الكفار ﴿فِتْصِيْبِكُمْ مِنْهُمْ﴾ أي: من قتلهم ﴿مَعَرَّةٌ﴾ أي: إثم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ منكم بهذا الذنب، أي: لولا هؤلاء !! لما كفَّ الله أيديكم عنهم في هذا اليوم، وكان ذلك الكفُّ والمنع؛ ﴿لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ منهم باعتراف الإسلام ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾، و ﴿لَوْ﴾ أن هؤلاء المؤمنين الذين يقيمون بين الكفار، ويخفون إيمانهم ﴿تَزَيَّلُوا﴾ تميزوا وعرفوا لكم؛ لتتلافوهم: ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ أي: من أهل مكة ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بتسليطنا لكم عليهم.

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾

نعم، إنهم صدُّوكم عن المسجد الحرام وزيارته ﴿إِذْ﴾ أي وقت أن ﴿جَعَلَ﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا من أهل مكة ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ﴾ الأنفة والكبرياء؛ حيث لم يعترفوا له ﷺ بالنبوة، ولم يقرُّوا بالتوحيد، وحالوا بينه وبين البيت الحرام، وتلك هي

﴿حِمَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ الكافرة، ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ﴾ في هذه الظروف والأجواء المشحونة ﴿سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فلم يقابلوا حميتهم بانفعال أهوج، أو تصرف غير عاقل، بل أتموا الصلح، على أن يعودوا في العام التالي لزيارة البيت، ﴿وَالزَّمَهُمْ﴾ ربهم بتوفيقه ﴿كَلِمَةَ الْفَقْوَى﴾ وهي كلمة التوحيد، فتصرفوا على هديها وتحت ظلالها، ﴿وَكَانُوا﴾ دون غيرهم ﴿أَحَقَّ بِهَا﴾ وأولى ﴿و﴾ هم كذلك ﴿أَهْلَهَا﴾ الجديرون بها بتوفيق الله لهم، ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ حيث يُجري الأمور حسب علمه سبحانه وحكمته.

رأى النبي ﷺ في منامه: أنه والمؤمنين معه يدخلون المسجد الحرام محلّقين رؤوسهم ومقصّرين دون تحديد موعد تحقّق هذه الرؤيا، وفهم الناس: أن ذلك يكون في عامهم هذا، ولكنه لم يحدث، حيث كان الصلح في الحديبية بين المسلمين والمشركين: على أن يعود المسلمون لأداء العمرة في عامهم المقبل.

ورضى المؤمنون، ولكنّ المنافقين جعلوها فتنة، وقالوا: ما دخلنا المسجد الحرام، وما حلّقنا رؤوسنا، أي: كذبوا رؤيا النبي ﷺ، ولأن رؤيا الأنبياء حق، فقد كذبهم الله تعالى، وقال في محكم آياته:

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (٢٧)

يعني ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ تبارك وتعالى ﴿رَسُولُهُ﴾ في ﴿الرُّؤْيَا﴾ التي رآها ﴿بِالْحَقِّ﴾ ولم يكذّبه، ثم أكّد سبحانه ذلك بقوله للمؤمنين: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ في دخولكم ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾، أي: منكم المحلّق لشعره كاملاً، ومنكم المقصر، ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ شيئاً خلال استقراركم بمكة، وأدائكم مناسككم، وهكذا يكون، ﴿فَعَلِمَ﴾ الله من الخير والمصلحة في صرفكم عن مكة هذا العام، وتحقّق ذلك في المستقبل ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ أنتم، حيث ﴿كَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦]، ﴿ف﴾ مثلاً: ﴿جَعَلَ﴾ الله عز وجل ﴿مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ الدخول أي: قبل تحقّق هذه الرؤيا ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو هذا الصلح، الذي كان فتحاً للدعوة، وانطلاقاً في نشرها.

ثم أكد الله عز وجل تصديق هذه الرؤيا بقوله:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (٢٨)

نعم ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ محمداً ﷺ ﴿بِالْهُدَىٰ﴾ وهو: العلم النافع، والعمل الصالح ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ وهو الإسلام، وذلك ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ أي: يظهر الله دين الحق، بواسطة رسوله ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي: الأديان كلها، وعلى أهلها كذلك، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أنه ﷺ، مرسل من ربه بالهدى ودين الحق.
نعم، إنه:

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكْعًا مُّجْتَذِئًا بَيْنَتْغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٢٩)

إنه ﴿مُحَمَّدٌ﴾ الموصوف بأنه ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾، ﴿و﴾ أما وصف أصحابه المؤمنين ﴿الَّذِينَ مَعَهُ﴾ فهم:

أولاً: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ يعادونهم، ولا يتوددون إليهم.
ثانياً: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ يحبون بعضهم بعضاً، يتراحمون، ويتعاطفون.
ثالثاً: ﴿تَرْتَهُمُ رُكْعًا مُّجْتَذِئًا﴾ لله تعالى، يطيعون ربهم، ويؤدّون فرائضه.
رابعاً: ﴿بَيْنَتْغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ مخلصين لله، يرجون فضله، ويطلبون رضوانه.

خامساً: ﴿سِيمَاهُمْ﴾ علامة صلاحهم وتقواهم لله ﴿فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ والخضوع والخشوع لله رب العالمين.

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿مَثَلُهُمْ﴾ أي: وصفهم ﴿فِي التَّوْرَةِ﴾، ﴿و﴾ أما ﴿مَثَلُهُمْ﴾ في الْإِنْجِيلِ !!

فهم: ﴿كَرَّرَ﴾ نما وترعرع، حتى ﴿أَخْرَجَ سَطَّعَهُ﴾ فروعها التي تنمو على جانبيه ﴿فَنَازَرَهُ﴾ فَاسْتَعْلَظَ ﴿وَقَوِيَ﴾ هذا الزرع ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ﴾، وصار ﴿يُعْجِبُ الرِّزَّاعَ﴾ شكلاً وحجماً وثماراً، وقد شبه الله صحابة رسول الله بذلك: ﴿لِيَغِيْظَ﴾ الله ﴿بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ أعداء الحق والهدى والخير.

ثم يكون ختام السورة: بوعد إلهي باق إلى يوم القيامة، يسعد به من كان أهلاً له، حيث يقول سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وثقوا وصدقوا ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ التي ترضي الله تعالى، وتصلح البلاد، وتسعد العباد، ﴿مِنْهُمْ﴾ ومن غيرهم ممن يسير على منهاجهم، وعدهم ﴿مَغْفِرَةً﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرًا عَظِيماً﴾ على حسناتهم وهو الجنة.

جعلنا الله تعالى وجميع المسلمين من هؤلاء، إنه ولي ذلك والقادر عليه، اللهم آمين.

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الحجرات

هذه السورة مدنية، وهي تبدأ بقوله تبارك وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾

هذا هو النداء الأول للمؤمنين في السورة الكريمة، من نداءات خمسة تضع مناهج وأسس، بما فيها من أمر أو نهى لعالم نظيف شريف عفيف يقوم عليها، وينتسب إلى الله بها؛ ليقود الدنيا وأهلها إلى الخير والصراط المستقيم.

والآية تنهى نهياً جازماً عن التقدم على كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ بشيء آخر، وعن الإقدام على أمر من الأمور دون معرفة هدي الله سبحانه وتعالى، وهدي رسوله ﷺ فيه.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما تفعلون، وفيما تتركون، حيث ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما تقولون ﴿عَلِيمٌ﴾ بما تفعلون، ويجازيكم على الخير بمثله، وعلى الشر بما تستحقون.

ولما نهى ربنا عز وجل عن الفعل الذي يجعل للإنسان مدخلاً في شرع الله ورسوله، أتبع ذلك بالنهي عن القول أيضاً، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾

وهذا هو النداء الثاني للمؤمنين ينهاهم ربنا تبارك وتعالى بقوله: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ إذا نطقتم ﴿فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ احتراماً له، وإجلالاً لشأنه وتعظيماً لشرعه وسنته، وذلك في حياته ﷺ.

وأيضاً: بعد مماته عليه الصلاة والسلام؛ حيث يكره رفع الصوت عند قبره، كما كان يكره في حياته.

ثم يقول المولى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ إذا ناجيته، وتحدثتم معه ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ في أحاديثكم، كل ذلك: مخافة ﴿أَنْ تَحْبَطَ﴾ ويضيع ثواب أعمالكم التي ترجون ثوابها ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ بذلك.

وبعد هذا النهي: يرغّب ربنا تبارك وتعالى في خفض الصوت عند رسول الله ﷺ بقوله سبحانه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٢)

نعم، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ﴾ يخفضون ﴿أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ إجلالاً له، واحتراماً، ﴿أُولَٰئِكَ﴾ هم ﴿الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ وسعها وشرحها ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾، ولذلك ﴿لَهُمْ﴾ عند ربهم ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وهو الجنة.

وبعد أن حدثنا المولى عن الذين يغضون أصواتهم، يبين لنا المقابل لهم، فقال: - يا محمد -:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤) ﴿لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥)

نزلت هاتان الآيتان في قوم من الأعراب نادوا النبي ﷺ بغلظة وجفاء، فأنزل المولى ذلك تعليماً للأمة، وبياناً لمكانة المصطفى ﷺ، حيث قال له ﴿إِنَّ﴾ هؤلاء ﴿الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ الخاصة بنسائك ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الأدب مع الله، ومعك، فهم جهال، وفيهم سفاهة عقول، خاصة وأنهم جاؤوا يطلبون منك إطلاق سراح أسراهم.

﴿و﴾ لذلك ﴿لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾ ولم يتعجلوا، ولم ينادوا بهذه الغلظة، وانتظروا

﴿حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ فيقولون لك ما يريدون ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ في دنياهم وأخرتهم، ثم يدعوهم المولى إلى التوبة فيقول: ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فاستغفروه، وتوبوا إليه، واطلبوا رحمته بطاعة رسوله، والأدب معه، والعمل بشرعه وستته.

وبعد الحديث عن هذين النداءين الالهيين للمؤمنين، يأتي النداء الثالث، فيقول الحق سبحانه:

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجْهَلَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾

هذه الآية: في ضرورة التثبت من الأخبار، حتى لا تكون فتنة، ويحدث بسببها ما لا تُحمد عقباه:

﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ﴾ بخبر ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ من صحته، وتثبتوا مخافة ﴿أَنْ تُصِيبُوا﴾ بتصرفكم بناءً على هذا الخبر ﴿قَوْمًا بِمِجْهَلَةٍ﴾ وضرر وأذية ﴿فَتُصْحَبُوا﴾ وتصيروا ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ﴾ بناءً على هذا الخبر ﴿نَادِمِينَ﴾ مغتمين غماً لازماً.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ ءَالِإِيمَنٍ وَزَيْنٌ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَهِ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ﴾ ﴿٧﴾ فضلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾

يعني: ﴿وَأَعْلَمُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ فعظموه، ووقروه، واتبعوا سنته؛ فهو أعلم بما فيه صالحكم، كما أنه ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ الذي تختارونه، أو تحبونه ﴿لَعَنِتُمْ﴾ أي: وقعتم في شدة وحرَج ومشقة، وهذا: لمن أرادوا أن يتبعهم النبي ﷺ فيما يريدون.

وأما الذين أرادوا أن يتبعوا هم النبي ﷺ فيما يريد، فيقول لهم ربهم: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ﴾ وإلى نفوسكم ﴿ءَالِإِيمَنٍ﴾ فاسترحم إليهم ﴿وَزَيْنٌ﴾ حسنه ﴿فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فعملتم به، ﴿و﴾ في الوقت ذاته ﴿كَرَهِ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ ثم يقول عن هؤلاء مرغباً غيرهم في اتباع طريقتهم: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ﴾ الذين أرشدهم الله إلى الصواب، وإلى كل خير.

وذلك الإرشاد ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ﴾ عليهم ﴿وَنِعْمَةً﴾ منه خصهم بها، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق ذلك من عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعل.

هذا، ولما حذر ربنا من التصرف بناءً على خبر الفاسق، ولكن مع هذا التحذير: قد يحدث تصرف بناءً عليه، ويكون قتال.

لذا، بين الله الفعل المناسب الواجب على الأمة في هذه الحالة، فقال جل جلاله:

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾

أي: ﴿وَإِن﴾ حدث شيء من كاذب، أو إشاعة مغرضة، أو خلاف لسبب ما، و ﴿طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ نتيجة لذلك ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ بسرعة، ولا تركوا هذا الخلاف يزداد، ولا هذا القتال يستمر؛ حتى يسود الود، ويعم السلام، ويتفرغ الجميع للعمل الصالح البناء النافع للأمة، ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا﴾ رفضت الصلح العادل، واستمرت في العدوان ﴿عَلَى﴾ الطائفة ﴿الْأُخْرَى﴾، ماذا نفعل يا ربنا؟ ﴿فَقَاتِلُوا﴾ بقوة إسلامية موحدة، الطائفة ﴿الَّتِي﴾ ترفض الصلح، و ﴿تَبْغِي﴾، أو أن تصالح، ثم تعود وتنقض هذا الصلح، و ﴿تَبْغِي﴾ على الأخرى، وذلك: ﴿حَتَّىٰ تَفِيءَ﴾ أي: ترجع ﴿إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ شرعه، وتكتب الصلح، وتلتزم به، ﴿فَإِن فَاءَتْ﴾ رجعت عن عدوانها، ورضيت الصلح وشرع الله: ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ الذي أمر الله به ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ أزيلوا الخلاف بينهما، حيث ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ بين رابطة قوية، وهي رابطة الدين والحب في الله، والتناصر بالحق، فلا تركوهم يدب الخلاف بينهم، ويسرق الشيطان منهم هذه الأخوة، وإذا حدث خلاف ﴿فَأَصْلَحُوا﴾ بسرعة ﴿بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ المتخاصمين، أو المتقاتلين، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في تدخلكم هذا، وأخلصوا نياتكم، واحكموا بالعدل بينهما ﴿لَعَلَّكُمْ

تُرْحَمُونَ ﴿١١﴾ جميعاً من مخاطر الخلاف والعداوة والقتال، وذلك بسبب تقواه سبحانه وتعالى.

وبعد أن بيّن ربنا تبارك وتعالى وأرشد المؤمنين إلى ما ينبغي أن يكون من الأدب مع الله، ومع رسوله، ومع المؤمن الفاسق، وذلك في النداءات الثلاثة السابقة، بيّن عز وجل في هذا النداء الرابع ما ينبغي من الأدب مع المؤمن الحاضر، إذ يقول سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَاسِمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾

في هذه الآية: تدريب على أدب كريم، وخلق عال للمسلم؛ حيث ينهاه ربه عن ثلاثة أشياء هي: السخرية، واللّمز، والنبز، وهي أخلاق ثلاثة سيئة، لا يحبها الله في المؤمن:

أولاً: ﴿لَا يَسْخَرْ﴾ لا يستهزئ ﴿قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ﴾ رجال من رجال، أفراداً كانوا أو جماعة ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونُوا﴾ أي: المستهزأ بهم ﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ عند الله تعالى. ﴿وَلَا﴾ يسخر ﴿نِسَاءٌ﴾ كذلك ﴿مِّنْ نِّسَاءٍ﴾ غيرهن ﴿عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ عند الله تعالى.

ثانياً: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا﴾ غيركم، وتطعنوا فيهم، فهم أنفُسُكم، حيث إن المسلمين كالجسد الواحد، ولا ينبغي أن يطعن العاقل في نفسه.

ثالثاً: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ فتنادون بعضكم بعضاً بألقاب لا تحبونها.

ومن يفعل هذا: فهو مخالف لشرع الله، ويصح أن يطلق عليه لفظ الفاسق. و﴿بِئْسَ﴾ هذا ﴿الْأَاسِمُ الْفُسُوقُ﴾ عنده ﴿بَعْدَ الْإِيمَنِ﴾ الذي أنعم الله عليه به.

على أية حال: توبوا أيها المؤمنون من هذه الأخلاق السيئة، ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنفسهم.

وبعد هذا يكون النداء الخامس للمؤمنين، وفيه: ما ينبغي من الأدب مع المؤمن الغائب، حيث يقول تبارك وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

وفي هذه الآية كذلك: تدريب على أدب كريم، وخلق رفيع ينبغي أن يتحلى به المسلم، حيث ينهيه عن ثلاثة أشياء: هي: الظن السيئ، والتجسس، والغيبة، وهي: أخلاق سيئة لا يحبها الله في المؤمن:

أولاً: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ حيث ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ وهو الظن السيئ بأنواعه.

ثانياً: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ على بعضكم بعضاً، وتبحثوا عن العيوب.

ثالثاً: ﴿وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ والغيبة: أن تذكر أخاك بما يكره، وهي: ذكر العيب في ظهر الغيب.

ثم ينفر الله عن ذلك بطريقة قوية رهيبة، حيث يقول ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾؟ أبداً، لا يحب أحد ذلك، نعم ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ وعلى ذلك: فينبغي أن تكون كراهيتكم للغيبة كذلك، و ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ يعينكم الله على التحلي بهذه الأخلاق، وتوبوا عما سبق منكم ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ يقبل توبة عبده، ﴿رَّحِيمٌ﴾ يغفر الذنب، ويرحم من عاد إليه، وصلاح حاله.

وبعد هذه النداءات الخمسة للمؤمنين: يخاطب الله عز وجل المؤمنين والكافرين والناس جميعاً بهذا النداء:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَرُّكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ جميعاً ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ﴾ هو آدم ﷺ ﴿وَأُنْثَىٰ﴾ هي حواء ﷺ، فلا معنى للتفاخر بالحسب والنسب، والتعالي على بعضكم بعضاً بسبب ذلك، ﴿و﴾ أيضاً ﴿جَعَلْنَاكُمْ﴾ بقدرتنا ﴿شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ عديدة متنوعة ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ ليعرف بعضكم بعضاً، فتعاونوا على البر والتقوى.

أما إذا أردتم التفاخر والتفاضل، فاعلموا أنه يكون بالإيمان والتقوى، نعم ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ﴾ وأفضلكم ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وأقربكم إليه، وأعلاكم بين خلقه عنده ﴿أَتَقَنُّكُمْ﴾ له سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بكرم القلوب وتقواها ﴿خَيْرٌ﴾ بالنفوس وهوها.

ولمّا قال ربنا عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ﴾ !!

ظهر أن الأكرم من اتقى ربه، ومن المعلوم: أنه لا يتقي ربه إلا المؤمن، وبذلك: صار الكرم بالإيمان.

ومن هنا ادعى بعض الأعراب - بمجرد نطقهم الشهادتين - الإيمان، فبين الله تعالى لهم أن الإيمان ليس بالقول، فقال جل وعلا:

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٤)

أي: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ﴾ لرسول الله مدعية هذا الشرف ﴿ءَأَمْنَا﴾ في الوقت الذي لم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد، ولذلك: قال ربنا لحبيبه ﷺ ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ وتصدقوا بقلوبكم، فلا تقولوا آمنا ﴿وَلَكِنْ﴾ أسلمتم، وانقدتم بجوارحكم فقط، ولهذا ﴿قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾.

نعم، أسلمتم ظاهرًا ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ حتى يجتمع الظاهر والباطن، فيصير الإسلام والإيمان شيئًا واحدًا، ﴿و﴾ على كل حال: ﴿إِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في كل أموركم ﴿لَا يَلِتْكُمْ﴾ لا ينقصكم ﴿مِنْ﴾ ثواب ﴿أَعْمَالِكُمْ﴾ شَيْئًا ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿رَحِيمٌ﴾ بعباده.

ولمّا نفى ربنا عنهم الإيمان الذي ادعوه بين لهم الإيمان الحقيقي، وأمله، فقال تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَأَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (١٥)

يعني: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الكاملون حقيقة، هم ﴿الَّذِينَ﴾ اتصفوا بما يلي:

أولاً: ﴿ءَامِنُوا﴾ أي: وثقوا ﴿بِ﴾ دين ﴿اللَّهِ﴾ وشرعه، الذي جاء به محمدٌ عبدُ الله و﴿رَسُولِهِ﴾ والتزموا به، وجعلوه منهاج حياتهم.

ثانياً: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أي: لم يشكوا في شيء منه، لا عن طريق الشبهات التي يثيرها المغرضون، ولا عن طريق الشهوات التي يروّجها المنحرفون.

ثالثاً: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إعلاءً لكلمته، ونشراً لدعوته، ولم يخلوا بشيء من ذلك، ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بهذه الصفات ﴿هُمْ الصَّادِقُونَ﴾ في إيمانهم، ولا يدعون الإيمان دون تضحية بغالٍ أو رخيص من أجل هذا الدين، وليس من يدعون الإيمان دون توائم بين ظاهرهم وباطنهم مخلصين النية لله.

ولذلك يقول ربنا للنبي ﷺ:

﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٦)

أي: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الذين يدعون الإيمان: أتخبرون الله بما في صدوركم، ظناً منكم أنه لا يعلم ذلك - وحاشا لله - أو ظناً منكم أنه لا يكشف سركم !!

لا، إنه يعلم ذلك، وأكثر من ذلك، إنه سبحانه ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، ﴿وَاللَّهُ﴾ عز وجل فوق هذا وذاك ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فاحذروه.

ثم يبين مظهراً من مظاهر عدم تمكن الإيمان من قلوب هؤلاء، فيقول الحق سبحانه:

﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٧)

﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ يعني: يعدّون إسلامهم إنعاماً منهم عليك، وهذا: فهم خاطئ، ومن سيئ، لذلك: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ﴾ حيث لا نفع لي به، إنما نفعه يعود عليكم أنتم، ﴿بَلِ اللَّهُ﴾ حقيقة هو الذي ﴿يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ الذي تدعونه ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم: ﴿ءَامِنَّا﴾ [الحجرات:

حيث إن المَنّ بتعداد النعم من العبد مذموم مرفوض، ومن الله عز وجل ممدوح مرغوب؛ لأنه صاحب كل النعم، والعبد لا يملك شيئاً.

حقاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٨)

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ تبارك وتعالى، لا تخفى عليه أسراركم، وأعمال قلوبكم، حيث إنه ﴿يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كله، ومن ذلك نياتكم، ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وسيجازيكم عليه بما تستحقون.
